

المصباح

١٣١٥

في يوم السبت ١٢ ربيع الثاني سنة ١٣١٧ الموافق ١٩ أغسطس (آب) سنة ١٨٩٩

﴿ الدين والدولة - أو - الخلافة والسلطنة ﴾

ارتأى بعض من كتب في (الجامعة الإسلامية) ان هذه الجامعة
توقف على الفصل بين الدين والدولة وبين الخلافة والسلطنة بان يكون
الخليفة رئيساً روحياً والسلطان رئيساً سياسياً لاعلاقة له بالدين واقترح
اصحاب هذا الرأي من كتاب النصارى على كتاب المسلمين ان يكتبوا مبيينين
رأيهم فيه وهما نحن أولاء قد لبينا طلبهم ونبدأ ببيان معاني هذه الالفاظ فنقول
(الدين) عرفه علماء المسلمين بأنه وضع الهي سائق لذوي العقول
باختيارهم الى الصلاح في الحال والصلاح في المآل وان شئت قلت الى
سعادتهم الدنيوية والاخروية وقواعده عندهم ثلاث تصحيح العقائد
وتهديب الاخلاق واحسان الاعمال والاعمال قسمان عبادات ومعاملات
ومن الثاني الاحكام بانواعها - قضائية ومدنية وسياسية وحرية . ومن الناس
من جعل الاحكام قسما مستقلا بنفسه ولا مشاحة في الاصطلاح . والدين
عند النصارى هو (كما في دائرة المعارف) « عبارة عن مجموع النواميس الضابطة
لنسبة الانسان الى الله . او بين صفات تلك النسبة » وهو كما ترى

لا علاقة له بالامور الدنيوية ولا بالاحكام والسلطة ومن المشهور ان
الديانة النصرانية مبنية على الخضوع لاية سلطة حكمت اصحاب الماني الانجيل
من ان سلطة الملوك انما هي على الاجسام الفانية وان سلطة الدين على
الارواح فقط فيجب على كل متبع لهذا الدين ان يدين لكل سلطة ويدفن
لكل شريعة حكمته بخلاف الدين الاسلامي فانه مبنى على السلطة والغاب
وان يحكم العالم كله بشريعته وان لم يدينوا كلهم به اذ لا سبيل الى اتحاد
النوع الانساني وجعله امة واحدة الا باحدى الوجدتين - وحدة الاعتقاد
ووحدة الحكم العادل الذي يساوي بين الجميع وقد بينا هذا في المدد السابق
فلا نعيده . فيجب على المسلمين ان لا يدينوا الا لمن كان على دينهم واذا حاول
اجنبي العبث باستقلالهم ودخل فاتح الى بلادهم يتعين عليهم ان ينفروا خفافاً
وثقالا ويقاتلوا نساء ورجالا حتى يدفعوا العدو او يفتنوا عن آخرهم . بل
يجب عليهم ان يسعوا في نشر دينهم ورفع لواء سلطانهم حتى تزول الفتنة
والشرك من الارض ويكون الناس امة واحدة تجمعها رابطة الاعتقاد الحق
والحكم العادل او الثاني فقط كما قدمنا وبهذا الاخير كان الاسلام لا اكراد
فيه . ولا ننافي سلطته تقدم غير متبعيه . فضلاً عن ابناءهم وهضم حقوقهم
(لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من ديارهم ان
تبروهم وتمسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين)

(الدولة) لهذه الكلمة اطلاقان فتطلق على سلسلة من الملوك تجمعهم اسرة
واحدة أو جنس واحد يحكمون مملكة من الممالك يقال دولة الامويين
ودولة العباسيين والعثمانيين كما يقال دولة الفرس ودولة الرومانيين وتطلق على
الحكومة والسلطة فيقال الدولة الفرنسية ويعني به حكومتها الحاضرة في

مجموع بلادها والحكومة في اصل اللغة مصدر حكم واسم من تحكم بمعنى
فصل الحصومة وفي العرف عبارة عن السلطة ورجالها القائمون عليها
(الخليفة) هي في الشرع الاسلامي الثيابة عن النبي صلى الله عليه وسلم
في حراسة الدين وسياسة الدنيا فهي جامعة للرئاستين معاً ويجب تفويض
الامور العامة الى الخليفة ولا تصح الاحكام في السعة الا اذا كانت صادرة عنه
مباشرة او بواسطة نوابه قال في الاحكام السلطانية (والذي يلزمه من الامور
العامة عشرة أشياء احدها حفظ الدين على اصوله المستقرة وما أجمع عليه
سلف الامة فان نجم مبتدع أو زاعغ ذو شبهة عنه أوضح له الحجة وبين له
الصواب واخذه بما يلزم من الحقوق والحدود ليكون الدين محروساً من
خلل والامة ممنوعة من زلل (الثاني) تنفيذ الاحكام بين المتشاجرين وقطع
الحصام بين المنازعين حتى تم النصفة فلا يتعدى ظالم ولا يضعف مظلوم
(الثالث) حماية البيضة والذب عن الحريم ليتصرف الناس في المعاش وينتشروا
في الاسفار آمنين من تغرير بنفس او مال و (الرابع) اقامة الحدود
لتصان محارم الله تعالى عن الانتهاك وتحفظ حقوق عباده من اتلاف واستهلاك
و (الخامس) تحصين الثغور بالعدة المانعة والقوة الدافعة حتى لا تظهر الاعداء
بغرة يتهكون فيها محرماً أو يسفكون فيها لمسلم أو معاهد دماً و (السادس)
جهاد من عاند الاسلام بعد الدعوة حتى يسلم أو يدخل في الذمة ليقيم بحق
الله تعالى في اظهاره على الدين كله و (السابع) جهابة الفيء والصيدقات
على ما أوجبه الشرع نصاً واجتهاداً من غير خوف ولا عسف و (الثامن) تقدير
المطايا وما يستحق في بيت المال من غير سرف ولا تقثير ودفمه في وقت
لا تقديم فيه ولا تأخير (التاسع) استكفاء الامناء وتقليد النصحاء فيما يفوضه

اليهم من الاعمال ويكاه اليهم من الامول لتكون الاعمال بالكفاءة مضبوطة والاموال بالامناء محفوظة (العاشر) ان يباشر بنفسه مشاركة الامور وتصفح الاحوال لينهض بسياسة الامة وحراسة الملة ولا يعول على التفويض تشاغلا بلذة أو عبادة فقد يخون الامين ويفش الناصح وقد قال الله تعالى « يا داود انا جعلناك خليفة في الارض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله » فلم يقتصر الله سبحانه على التفويض دون المباشرة ولا عذره في اتباع الهوى حتى وصفه بالضلال وهذا وان كان مستحقاً عليه بحكم الدين ومنصب الخلافة فهو من حقوق السياسة لكل مسترع (لعله مسترعى) قال النبي صلى الله عليه وسلم (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته) اه فهذه وظائف الخلافة بالاجمال

(السلطنة) كلمة أخذها المولدون من لفظ (سلطان) ويعنون بها الدولة أو الحكومة يسمى حاكمها الاكبر سلطاناً ولم يطلق لقب السلطان على احد من خلفاء الامويين والفاطميين والعباسيين وانما حدث هذا اللقب في طور ضعف الخلافة العباسية الذي كان من اثره افتتاح العمال في الاقاليم على الخلفاء واستبدالهم بالامر من دونهم واخترع الالقاب الضخمة وتجاوهم بها ثم جعل الخلافة اسماً مهملاً ليس لاربابها من الامر شيء الا نحو ذكر اسمائهم في الخطب وما هو بالامر المهم في الدين ولا في الدنيا. وكان من تلك الالقاب الضخمة التي تلقب بها العمال والامراء الذين استبدوا على الخلفاء لقب (سلطان) وأول من تلقب به من الامراء المستقلين في عهد الخلافة العباسية (محمود بن سبكتكين الغزنوي) الفاتح الشهير في القرن الرابع للهجرة الشريفة من تدبر ما شرحناه من معاني هذه الكلمات الاربعة يتجلى له ان الدين

الاسلامي جامع لمصالح المعاش والمعاد ومبني على أساس السلطتين الزمنية والروحية وان الديانة النصرانية على خلاف ذلك وان الخليفة هو رئيس المسلمين القائم على مصالحهم الدينية والذنيوية وان كل حكومة تخرج عن طاعته الشرعية فهي منحرفة عن صراط الاسلام وان القول بفصل الحكومة والدولة عن الدين هو قول بوجوب محو السلطة الاسلامية من الكون وادخ الشريعة الاسلامية من الوجود وخضوع المسلمين الى من ليس على صراط دينهم ممن يسمونهم فاسقين وظالمين وكافرين فان القرآن العزيز الذي هو أساس الدين يقرع دائماً آذانهم بل يناديهم من أعماق قلوبهم قائلاً بلسان عربي مبين (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون) (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون)

اذا تمهد هذا فنقول للذين يدعوننا الى فصل الدين عن الدولة والتفريق بين السلطنة والخلافة لاجل تأييد الجامعة الاسلامية ان كنتم تدعوننا هذه الدعوة جاهلين بمعنى هذه الالفاظ عندنا فما نحن أولاء قد بيناها لكم فارجعوا عن دعوتكم فقد علمتم ان قياس الاسلام على النصرانية قياس مع الفارق فان فصل السلطة الروحية عن السلطة الزمنية هو أصل النصرانية وقد كان رؤساء الدين تعدوا الحدود وتسلقوا عروش السلاطين والملوك مخالفين لصاحب الدين الذي

قد جاء لاسيف ولا رمح ولا فرس ولا شيء يباع بدمهم
ياوي المغارة مثل راعي الضأن لا راعي المماك في السرير الاعظم
فلا بدع اذا ترقى الدين بانصراف رؤسائه الى خدمته وتركهم الاشتغال

بما ليس منه في شيء ونحن والنصارى في هذا الامر على طرفي نقيض فاننا اذا تلونا تلوهم فيه نكون قد تركنا نصف ديننا الذي هو السياج الحافظ للنصف الباقي . كلا ان الدين كله يكون بهذا العمل عرضة للاضمحلال ومهدداً بأزوال . لاجرم ان ماتدعوننا اليه هو اقرب طريق لاعدام (الجامعة الاسلامية) فكيف جعلتموه طريق ايجادها . وهو اقوى علل شقائها . فأنى تدعوننا بانه علة اسعادها ؟ ؟

وان كنتم تدعوننا اليه عن بينة وعلم . ووقوف على حقيقة الحكم . خدمة لمن فتنتم بمدنيتهم . واتصلتم بهم بمجازية تعليمهم وتربيتهم . فاعلموا ان العلة لم تهبط بنا الى هذا الخفيض . الذي يقال فيه (حال المريض دون القرىض) . وان الجهالة ما امتلخت احلامنا . وازاغت ابصارنا . ولا رمثنا بالأفن . ووضيق العطن . بحيث صرنا نختبل بهذه الوسوس . ونختلب بتلك الهواجس . أو نتخذع لذي (خواطر خواطر) . ونفتقر بكلام مارق غادر . يصف نفسه بانه مسلم حر الافكار . وما جاءت حرته الا من رق الكفار . فان كان اتخذ لقب المسلم ذريعة . لهدم منار الشريعة . فكأين من منتسب مثله للاسلام . ينتهك حرمانه بالفعل لا بالكلام . ويساعد الاجانب على نقض أساسه . واطفاء نيراسه . متبجحاً بانه من الاحرار المتمدنين . البراء من لوث التعصب للدين . ربما كان الحامل لبعض الكتاب المسيحيين على اقتراح ما ذكر هو اعتقادهم بان زوال السلطة الشرعية الاسلامية هو الذي يساوي بين طائفتهم وبين المسلمين ويحمد نيران الغلو في التعصب فيتفقرون على اعلاء شأن الوطن ويخدم كل دينه من الوجهة الروحية التي لامثار فيها للتنافر ولا مبعث للتنافس والتفاخر . ويسهل علينا ان نبين لهم خطأهم في اعتقادهم هذا فنقول

(١) ان بناء الشريعة الاسلامية قام على قاعدة العدالة والمساواة بين المسلمين وغيرهم في الاحكام والحقوق المبرعنها بهذه الجملة التي يتناقلها الاسلام خلفاً عن سلف وهي (لهم مالنا وعليهم ما علينا) وقد دلنا التاريخ على ان الحكومات الاسلامية كانت تراعى هذه القاعدة بحسب تمسكها بالدين قوة وضعفاً . ومن قابل بين مساواة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب الامام علياً صهر النبي وربيه وابن عمه برجل من آحاد اليهود في المحاكمة وانتقاد علي عليه بقوله له (يا أبا الحسن) وعده التكنية اخلاقاً بالمساواة لما فيها من التعظيم وبين ما هو جار اليوم في فرنسا من النحامل على دريفوس وهو من اكابر عظماء اليهود حتى انهم حاولوا قتل وكيله الذي يحامي عنه وهم أصحاب العلم الذي ينطق بالحرية والعدالة والمساواة . يظهر له الفرق بين المسلمين في بدايتهم والاوربيين في نهاية مدنيهم فالشريعة في نفسها عادلة ولا يضر المسيحيين ان مواطنهم المسلمين يعتقدون انها سماوية بل هو يفهم كما يأتي وهم لا فرق عندهم بين الشرائع اذ دينهم يوجب عليهم اتباع أية شريعة حكموا بها

(٢) ان الترقى الديني والمدني الذي تقصده من احياء الجامعة الاسلامية يتوقف على التهذيب وقيام الافراد بما عليهم من الحقوق والواجبات لمن يعيشون معهم وهذا القول لا يخالف فيه احد . ومعلوم ان المسلمين لا يعتقدون بحق ولا واجب الا اذا كان مبيناً في شريعتهم ومأخوذاً من اصول دينهم فاذا فصل بين الدين والدولة كان جميع ما تكلفهم به الدولة من الحقوق والواجبات غير واجب الاتباع في اعتقادهم فاذا اخذوا به في العلانية لا يأخذون به في السر ولا يتم تهذيب الامة ما لم يكن الزارع لها عن الشر والحامل لها على الخير ثابتاً في نفسها مقررراً في اعتقادها . فخير للمسيحيين ان يحكم المسلمون بشريعة ودولة

توجب عليهم احترامهم والقيام بحقوقهم سراً وجهرًا وبدون هذا يضرر
المسيحيون ولا يرتقي المسلمون بل يتدلون ويهبطون كما علم بالاختبار
والمشاهدة فقد أنبا التاريخ ان مبدأ الخلل والضعف الذي ألم بنا كان اهمال
وظائف الخلافة والخروج بها عن معناها الذي هو حراسة الدين وسياسة الدنيا
. ولما ضعف الخلفاء عن القيام بالوظيفتين لجهلهم وانعماستهم في الترف والرفاهية
استبد العمال بسياسة الدنيا فكانوا ملوكا وسلاطين وأهملت حراسة الدين
فلم يكن لها زعيم يقيم السنن ويميت البدع غير ما كان يأتيه بعض صلحاء
الملوك احيانا فتمزق بهذا نسيج الوحدة وتفرق شمل الجاهمة الاسلامية
حتى وصلت الى ما نحن فيه الآن وكان هذا امرًا اقتضته طبيعة العمران .
ولن يعود الاسلام مجده الا باحياء منصب الخلافة واتفاق المسلمين على امام
واحد يعتقدون وجوب الخضوع له سراً وجهرًا ولا امام اليوم للمسلمين بهذا
المعنى الا القرآن الكريم فيجب على من يهمة ترقية شؤونهم ان يدعوه به
الى العلم والعمل وتفرض غبار الجهل والكسل . والقيام بمصالح المعاش والمعاد .
على ما تقتضيه سنن الترقى والاسعاد . فهو امام كل امام . وكما كان المبدأ
في ترقيم كذلك يكون الخاتم .

✽ كان ياما كان ✽

٦

ثم هبطت السيارة السادسة . وكانت كائنة آتية . فادت بأبيها الناس المتجرعون
كؤوس الكدر والابتناس . الام تصبرون على هذه الحياة المرة . هلموا أبعثكم
(الصفاء والمسرة) . فأذبلوا اليها يزفون . كأنهم الى نصب يوفضون . عازمين على انهب
مالديها . وانغصب ما في يديها . شتاء لغيظهم من صواحبها . اللائي كن شبيهات بها .